لماذا تخلفت الدول الإسلامية وتقدم غيرها؟

رداً على هذا السؤال.. قال الشيخ:

(إن الإسلام قبل أي شيء هو سلوك. الإنسان المسلم، يسلك سلوك الإسلام.. لكن كثيرا من الناس لا يفعلون ذلك. بل أن بعض المسلمين الذين يعيشون في بلاد غير إسلامية تجرهم تلك البلاد بعاداتها وتقاليدها. فيبتعدون عن الإسلام. وأعتقد أن واجبنا الأول أن نثبت الإسلام في نفوس المسلمين .. معظم الذين اعتنقوا الإسلام قد رأوه القدوة في السلوك الإسلامي.. وأحسوا بعظمة هذا الدين.و ما يقدمه من سلوك طيب..ومنهج كريم للحياة..

وفي هذا الكون. هناك أشياء تفعل لك. وهناك أشياء تنفعل بك.. فالشيء الذي يفعل لك في الكون يستوي فيه الناس جميعا. كافر ومسلم. ويستوي فيه الناس كل الناس. هذه الأشياء هي: كالشمس مثلا.. لا شمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها كافر أو مسلم. أو شاكرا لله.. أو جاحدا بنعمه.. كلهم سواء.. عطاء الشمس للجميع.. سواء وهي لا تفرق بين شخص وشخص. ولا هواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أي تمييز.. والماء مثلا يشرب منه كل كائن حي بصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله أو كفره. هذه الأشياء تفعل لك كثيرا.. الشمس تعطينا النور ولا طاقة وأسباب الحياة.. إلى آخر ذلك. والأكسجين والهواء يعطينا أسباب الاستمرار في الحياة.ولا ماء يعطينا الحياة نفسها.. ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء:٣٠). فهذه أشياء تفعل لك.وتفعل لك بلا تمييز..أي أنها لا تميز في عطائها بين عاص. وعابد. ومؤمن.وكافر.

نأتي بعد ذلك إلى الأشياء التي تنفعل بك. وارتقاء الإنسان في الكون يتم

فيما ينفعل بك لا فيما يفعل لك. إن ما ينفعل بك أن فعلت فيه ينفعل.. إذا حرثت الأرض حرثا جيدا ثم وضعت فيه البذرة. ثم واظبت على رعايتها وتوليتها تعطيك ثمرا جيدا.ومحصولا وفيرا. إن بحثت عن المعادن الصالحة لحياة الإنسان في باطن الأرض تعطيك معادتها.،لو لم تفعل فإنها لن تنفعل معهم.. فالذين يعملون ويجدون في الأشياء لتنفعل معهم.. والذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء التي تنفل للإنسان في الأرض لا يتقدمون.. ويظلون متأخرين. وهنا يحدث الخلاف بين ارتقاء عدد من الناس..وتخلف عدد منهم. يحدث هذا الخلاف في التعامل مع الأشياء الموجودة في الكون التي تنفعل بك.و لا دخل للدين في هذه المسألة.. فالأشياء التي تنفعل لك. كالشمس والهواء ولا ماء.وما في الأرض. لا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر وملحد.. والأشياء التي تنفعل بك. ولاتي يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على النتيجة.. هذه الأشياء أيضا لا تفرق بين مسلم وكافر ومؤمن وملحد. فالكافر الذي يحسن حرث أرضه وريها..ويحصل على أجود أنواع البذر. ويتعهد الزرع. يجني محصولا وفيرا. والمؤمن الذي يهمل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا تعطيه الثمرة.. لأنه لا يطبق قوانين الكون..،لا يعمل لينفعل مع الأشياء التي تنفعل به في الدنيا. والملحد أو الكافر الذي يستخدم أحدث الأساليب العلمية.ويجد ويسعى ليكشف عن المعادن في باطن الأرض... تظهر له هذه المعادن. لأنها تنفعل به. والمؤمن الذي يترك المعدن في باطن الأرض.. ولا يبحث عنه.. لا ينفعل به. ولا يخرج له.

تلك حقيقة كونية يجب أن نعيها جيدا.

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها. ليجذب الإنسان إلى العمل. فما هي الزينة في حقيقتها. هي ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية..

فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل.. وزينة الارض هي أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل.. فالإنسان حين يرى حديقة جميلة أو عماره فخمة. يتمنى أن يبني أو يعمل مثلها.. فتكون هذه الزينة حافزا له للعمل. فكان الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني إليها.. ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هي الغاية.. أم لا تكون.. وهنا الابتلاء.. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود ٦١).. معنى أستعمركم.. أي طلب منكم عمارتها.. وذلك لا يتأتى ألا بأمرين.. أن تبقى الصالح على صلاحه. لا تفسده... وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه. وأقل ما تأمر به هذه الآية. هو أنك لا تأتي للصالح وتفسده. معنى استعمر الأرض. أي أبقى الصالح على صلاحه أو زاد في إصلاحه.

والله يخاطب الشيء بالقوة..والشيء بالفعل. زينة الله على الأرض من أثرين.. آثار خلق الله..والطبيعة التي وهبها لنا. وآثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له. ليضيف إلى ذلك.وعندما نقرأ في سورة الكهف.. ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً [٨٣] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً [٨٤] فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ (الكهف ١٣، ١٥).. ومعنى ذلك أننا أعطيناه أسباب المتعة والقوة والحكم في الأرض..ولكنه لم يقتصر على ما أوتي. لم يقتصر على ما فعل له. اتبع هو سببا.. فيما ينفعل له. ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليقول لنا: أن الإنسان مهما يعطي لا يجب أ، يكتفي بما أعطي له ولا يفعل شيء. بل يجب أن يأخذ هذا العطاء.ويعمل من أجل أن يضيف إليه.. وينفعل به.. مع العناصر التي خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان في الأرض.. ردنا مصداقا للحديث لا شريف: لا خير فيمن لا يضيف.. والإضافة هنا بمعناها النعام. أي أنك أنت إن استفدت من الكـ ن. وجعل الله الكون في خدمتك.. ن تعطي عطاءا للكون. أن تضيف إليه شيئا. وإلا أصبحت

الحياة جامدة وغير متحركة.ولا متطورة. وتوقف تطور البشرية ونموها إذ أن الحياة تتطور من أن يضيف الإنسان من ذاته ما تفاعل به من بيئته. ومع الكون ليصنع ش - ديدا.. أي أن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نقف أمام قطعة من الأرض ولا نفعل شيئا ننتظر المطر ثم يظهر نبات. أي نبات.. فنأكل منه. أو ترعى منه الماشية.. ثم بعد ذلك لاشيء.. لابد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التي خلقها الله في الأرض لتنفعل به..وتعطيه أحسن النتائج. وهذا معنى الآية الكريمة.. فأتبع سببا. أي أنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذي أعطى له من الله.

والذي يجب أن نعرفه.. أن منازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة. فقد يكون رجل ذا جاه ومال في الدنيا. أخذ من نعم الأرض الكثير. ومع ذلك مصيره النار.. وقد يكون رجل ليس له حظ في الدنيا رزقه يكاد يكفي قوته. هو من أهل الجنة..تلك حياة.وتلك حياة.. بل أن المترفين في نعمي الدنيا هم عادة أكثر بعدا عن الله من غيرهم.. وللذلك ضرب الله عدة أمثلة في القرآن.. ولكن هذا لا يجب أن يلهينا عن الحقيقة.. وهي أن من يتبع القوانين التي وضعها الله في الأرض. بالنسبة للحياة الدنيا يأخذ نصيبه منها.ومن يتبع قوانين الله بالنسبة للحياة الآخرة.. يأخذ نصيبه منها.

وكما أوضحت.. فإن الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التي أعطاها لنا في سبيل الرزق.. عملا. لنحصل على أحسن النتائج. وهذا العمل هو نوع من العبادة.. لأننا نطيع قوانين الله في الأرض.. وهو أعطانا أسباب الرفعة في الدنيا. وفي الآخرة. وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب.. ونعمل من أجل الدنيا. ومن أجل الآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٧٧).. فإذا كان هناك تخلف في الدول الإسلامية.. فالإسلام نفسه برئ

من هذا التخلف. لأنه وضع أمامنا كل أسباب الرقي والتقدم.. وطلب منا العمل في الحياة الدنيا. حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل. فإذا كنا قد تركنا أسبابا التقدم التي هي موجودة في الإسلام.. فليس هذا عيب الإسلام.. وإنما العيب في عدم تطبيق تعاليم الإسلام التطبيق الصحيح والسليم.

وإنني أعجب من بعض الناس الذين يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة إلى عدم العمل والجهاد.. بينما هو في الحقيقة / .. دعوة للجهاد والعمل. والتأكد من أن النتيجة طيبة. لأن الله يبارك هذا العمل.. ولا تأكد من أن النتيجة طيبة.. لأن الله يبارك هذا العمل.. ويبارك هذا لجهاد. الصادر من قلب المؤمن.ولكن بعض الناس يريدوا أن يضعوا في الدين ما ليس فيه..وإذا كانت المسألة كذلك.. من أن نترك كل شيء لله..ولا نعمل.. فلست أدري. لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء.. وهو الطعام والشراب. فإذا عطش. فهو يقوم ليشرب.. وإذا جاء الطعام. فهو يأكل ويبذل جهدا في تناول الطعام ومضغه. لماذا لا يترك كل هذا لقدرة الله. إذا كان المطلوب هو عدم العمل. وعدم بذل أي جهد للإنسان..ولماذا يأتي إلى هذه النقطة بالذات..ويضيف عملا إلى ما أعطاه الله.)

إلى هنا أنتهي كلام الشيخ.. وها قد رأينا كيف وبكل بساطة وعمق.. شّخص لنا داء من أهم أدواء الأمة وهو (تخلفها) عن غيرها. وكيف أن هذا التخلف لا علاقة له بالإسلام بل بنا نحن المسلمين وخاصة أولئك الذين تركوا الأسباب أو معظمها متعللين (كذبا وزوراً) بالأسباب.. فإذا أردنا التقدم وأن نجد لأنفسنا موطأ قدم بين الأمم المتقدمة فلابد من الأخذ بالأسباب التي هيأها الله لنا.. وهكذا يمتعنا الشيخ الشعراوي دائماً بكلماته وفهمه العميق لقضيانا وللنفس البشرية.